

تقصيد الجانب الروحي في الشخصية الإسلامية

الأستاذة حمزة العييدة

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية



عليها، يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى: "إن الأمة العربية تفقد إنسانيتها يوم تفقد الإسلام"، وهذا ما أكدّه الفيلسوف الاجتماعي ابن خلدون قائلاً: "لا يقوم للعرب ملك إلا على أساس نبوة".

هذه القيم التي جاء بها الإسلام تتصف بصفات كريمة مثلى، وتمتاز بمميزات لا تستطيع المناهج الإنسانية الوصول إليها أبداً، ذلك لأنها تدعو إلى مصلحة الفرد والمجتمع وتهدف إلى سعادة كل من الفرد والمجتمع في الدنيا وتحقق له النعيم في الآخرة.

الموضوع الذي أستعين الله تعالى لتحليله هو موضوع "تقصيد الجانب الروحي للشخصية الإسلامية" والحقيقة أننا أحوج أمم الأرض إلى أن نعيد ترتيب أمور دنيانا وديننا...

فحينما نتحدث عن الجانب الروحي يتبادر إلى الذهن مباشرة جملة القيم الدينية التي جاء بها الإسلام والتي ألبست أهلها حلّة الوقار والهيبة والتقدير والاحترام والعزّة... ورفعت خسيستهم وزكّت سيرتهم.

وللأسف فإن هذه الحلّة تهاون لابسوها بمرور الزمان في المحافظة

وتربيتها على الصدق، والأمانة، على الرأفة والرفق، على الرحمة والوفاء والشرف... وسوية في صفاتها وخصائصها، في مآلها وطبائعها، في مقاييسها وموازينها، التي تسعى في هذا الكون لترسم معالم الإنسان الذي شاء خالق الكون ومبدع الحياة وفاطر الإنسان.

هذه الشخصية الإسلامية اليوم تمثل في ذاتها ذلك التراث الضخم الذي ورثته عن الآباء والأجداد شارك فيه اتجاهات مختلفة بعضها مع الإسلام والقيم الإسلامية وبعضها ضده، لهذا صار لزاماً إعادة بناء هذه الشخصية وترميم ما صدّع من مبادئها ما دامت القواعد قوية ومتينة.

التصور الفكري للحياة الروحية:

تختلف رؤية الناس للجانب الروحي والقيم الدينية بحسب عوامل كثيرة تربوية، إعلامية وغيرها... فمنها:

- من يتصور أن الجانب الروحي هو عبارة عن قيود وضوابط تحدّ من

والمتبّع لأي القرآن العظيم يجد أن القيم بمختلف تجلياتها هي من المقاصد الأساسية التي تنضح بها عشرات الآيات القرآنية، والمراد بالقيم ذلك النزوع الإنساني نحو الوسطية والاعتدال والاستقامة والحب الصميمي للخير ولأعماله وتعبيراته المختلفة فضلاً عن الجمال والعزّة، والجمال...

وكانت من بين هذه القيم التي أنعم بها المنعم على خلقه التربية والتي عبر عنها القرآن الكريم بالتركيز في أكثر من موضع، وعبر عنها أهل التصوف بالتخلية والتحلية، والكلمة الدقيقة الجامعة لهذه الجملة من المعاني هي كلمة التزكية.

فما المقصود بالتزكية؟ المقصود منها استجماع الإنسان الفضائل التي لا بد منها للكمال الإنساني، فالشخصية الإسلامية هي الشخصية الإنسانية الوحيدة التي توسم بأنها شخصية زكية سوية، زكية في قهرها الرذائل

حرية الإنسان فكرا وسلوكا...

- ومنهم من يتصور أن الحياة الروحية تهدف فقط إلى السمو بالنفس والترفع عن قيود الأهواء والشهوات منعزلين عن الحياة اليومية وفي منأى عن المجتمع ومتطلباته... متجاهلين أن الشريعة وازنت بين مطالب الجسم ومطالب الروح، فالإنسان جسد وروح ولكل منهما مطالب لا بد من تلبيتها.

فمن المطالب الجسمية الطعام والشراب واللباس، ومن المطالب الروحية الإيمان والعبادة والعمل الصالح ومكارم الأخلاق.

ولكي يحقق الإنسان وجوده وتستوي حاله ويصل إلى الهدف المنشود يجب أن يوفر لكل مطالبه في حدود الاعتدال لأن التفريط فيهما هلاك وخسران مبین، وصلاح أحدهما أو فساده ينال الآخر.

لذا جاء الإسلام مبنيًا على قواعد العلم ونواميس الطبيعة وبكيفية تلائم فطرة الإنسان وتحقق التوازن بين

هذين الجوهريين حتى يحتفظ الإنسان بآدميته، فالإنسان من حيث هو إنسان كل واحد كالأخر كما قيل:

شرق وغرب تجد من صاحب بدلا
فالأرض من تربة والناس من رجل
فشرفه أن يوجد كاملا في المعنى
الذي أوجد لأجله، والإسلام لا يقف مانعا لأهله أمام التمتع بمختلف الملذات ما دام ذلك بطريق مشروع وفي حدود معتدلة، فتدبر قوله تعالى:

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ حُدُوًّا زَیْنَتُکُمْ عِنْدَکَیْ مَسْجِدٍ وَکُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِیْنَ ۝۳۱﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زَیْنَةَ اللَّهِ الَّتِیْ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِیَ لِلَّذِیْنَ ءَامَنُوا فِی الْحَیَوةِ الدُّنْیَا خَالِصَةٌ یَوْمَ الْقِیَمَةِ کَذَٰلِکَ نَفَصِّلُ الْآیَاتِ لِقَوْمٍ یَعْلَمُونَ ﴿۳۲﴾

الأعراف: ۳۱ - ۳۲.

وعليه فالرهبانية وإخماد الشهوات يتنافى وأصول الإسلام وطبيعته، وبهذه الخاصية امتاز الإسلام عن بقية الديانات وكان المسلمون وسطا بين أرباب الغلو في الدين المفرطين

الشهوات وقهر النفس وتهذيبها وجعلها وفق مراد الشارع الحكيم، فتصير تابعة لمراد الخالق وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۚ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۚ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ الشمس: ٧ - ١٠.

فالنفس طيعة للتربية والتهذيب وللإنسان القدرة على أن يجعلها تسير مضبوطة الغرائز محكومة الطباع.

3- التعليم: ومعناه تعليم الحقائق التي تنظم المجتمع أفرادا وجماعات ولا يتأتى هذا المطلب إلا بازدواجية العلوم الدينية والمدنية، وقد شهدت البلدان العربية هذه التجربة وحصدت نتائجها بأن تخرج شباب يعرفون أمور دينهم ودنياهم، وبعد أن هبت رياح التغيير على المنظومة التربوية التعليمية، وأصبح طلبة العلوم الدينية في واد وطلبة العلوم المدنية في واد آخر كانت الحصيلة أن وجد شباب متعلم لا يعرف إلا الدين ويجهل أبجدية لأمر التكنولوجيا وفي المقابل تجد

وأرباب التعطيل المفرطين وهو ما تكشف عنه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ البقرة: ١٤٣.

عناصر الحياة الروحية: تقوم الحياة الروحية على ثلاثة عناصر والتي تضمنتها هذه الآية وأخواتها في المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ١٥١. وقوله تعالى أيضا: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة: ٢.

هذه العناصر هي:

1- تلاوة آيات الحق على الناس، الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، والوحي المصطفى بكلمات مضیئة سامية.

2- التزكية: وهي كما سبق ضبط

الفقهاء حين حصروا حفظ النفس في تشريع عقوبة القصاص منها إلى أن المعنى المراد من حفظ النفس أوسع من ذلك، فالمقصود حفظ الأرواح من التلف أفرادا وعموما، بل حفظها أبعد من ذلك وهو تزكيتها وتهذيبها وجعلها موافقة لقصد الشارع الحكيم...

وأما عن العقل، فمعلوم أن لكل إنسان قلبا، ولكن هناك من الناس من يرقى بقلبه إلى توجيه الفكر والنظر فيعي ويتدبر، ويستعمل عقله تبعا لوجدانه السليم - أي النفس المهدبة - وهناك من يغمس قلبه في الشهوات فلا يتسع قلبه لوعي شيء، فكأنه حينئذ يعطل قلبه، فيكون بمثابة من لا قلب له، لهذا كان التعليم المزدوج وهو التعليم الشرعي والطبيعي النافع ضرورة ملزمة وحتمية للشخصية الإسلامية وفي هذا يقول أبو حامد الغزالي عن العلم النافع المطلوب: "هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس، وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان".

شبابا بارعا تكنولوجيا جاهلا دينيا لا يعرف عن دينه إلا النطق بالشهادة فلا هؤلاء نفعهم التعليم الديني ولا هؤلاء انتفعوا بتكنولوجياهم، فتعين أن القصد المراد من التعليم أن يتكون شباب يعرفون طبيعة الدنيا التي يعيشون فيها، ثم طبيعة الدار التي تنتظرهم بعد أن حصنوا أنفسهم بالإيمان وتركوا الدنيا بعد حياة زكية بصيرة واعية، فإنهم يستقبلون دار المقامة ولهم فيها مكان رحب وفي هذا يقول رب العزة:

﴿الَّذِينَ نُوَفِّهِمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل: ٣٢.

وجماع القول أن الجانب الروحي هو الذي يوقظ القلب ويوجهه إلى كل فضيلة ومكرمة، ويحيي الضمير ويجعله دائم المراقبة، ومراعاة لهذه الشخصية وتحديدًا وتدقيقًا للنفس والعقل فقد شرع لهما ما يحفظهما من جهة العدم ومن جهة الوجود، فأما عن النفس، فقد انتقد الشيخ الطاهر بن عاشور

ويكون دعامة قوية في نضج شخصيته وتماسكها.

* ثانيا في الأمن النفسي: هذا

مطلب عزيز لكل إنسان رجل أو امرأة، كبير أو صغير لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ قریش: ٤، فالتشبع بالجانب الروحي يشعر الإنسان بشيء من الأمن والأمان على مستقبله الأخروي إذا استعد بصالح الأعمال- وإن لم يضمن له الجنة- بخلاف المقصر في هذا الجانب فإنه عرضة للقلق الداخلي على مستقبله الدنيوي والأخروي مما ينعكس سلبا على تصرفاته مع نفسه وغيره، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد: ٢٨.

* ثالثا في الثقة بالنفس: كثير

من الأشخاص كانوا يعانون ضعفا في المعنويات وشعورا باليأس والإحباط لأسباب مادية أو غيرها، فعندما يسلكون هذا الطريق ويشقون هذا

لهذا كانت النفس والعقل مما أجمع على رعايتهما واتفقت الأمة بل سائر الملل على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، فلو تجردت النفس عن الجانب الروحي وتركت الأهواء والشهوات تسيّرهما كما تهوى، وابتعد العقل والوجدان عن العلم الشرعي، لصارت الأمة شبيهة بأحوال الأنعام، بحيث لا تكون على الحالة التي أرادها منها الشارع الحكيم، وقد تفضي إلى الفوضى والضياع...

أثر الجانب الروحي في الشخصية:

* أولا في الضمير: إن للتربية

الروحية أثرا بليغا في تكوين الضمير داخل النفس، إذ أنها توازن في توجيه الشخص من جمع بين الترغيب في الخير والثواب عليه والترهيب من الشر والعقوبة عليه بحكمة، فإن الضمير ينمو نموا سليما في الإنسان ويؤثر إيجابا في شخصيته وينعكس على علاقته بنفسه وبالأخر، فيقوى بذلك عنده الجانب الخلقي، ويبرز في تصرفاته ومعاملاته

الاجتماعية وقضاء الأوقات: للتربية الروحية عظيم التأثير في تحسين نوعية العلاقات مع الآخرين والتواصل معهم ويشمل ذلك:

- التأدب بالآداب الإسلامية من إفشاء للسلام وإظهار للبشر والابتسامة.

- صلة الرحم والمواظبة على تقوية الروابط الأسرية.

- التحلي بالحلم والعفو والتسامح...

- التحلي بالآداب العامة والسعي لنشر الخير وسط الناس.

- الغيرة على هذا روح هذا الدين تدفع الواحد إلى إظهار شعائره.

- التحلي عن كل رذيلة كبيرة أو صغيرة...

* سادسا في تنمية الصفات

الإيجابية: التربية الروحية تعمل على تغيير طباع الإنسان من الأسوأ إلى الأفضل، فتهدب الصفات السلبية في

الصراط المستقيم تراهم يتعشون من جديد وتتغير معنوياتهم وأحوالهم فيشعرون بعزة ما هم فيه وفخر أنهم سلكوا هذا الطريق فصاروا تحت مظلة العزة الإيمانية.

* رابعا في الأزمات النفسية:

يعين الجانب الروحي على التغلب على الأزمات النفسية التي تقع على الأشخاص، إذ تجعلهم يتقبلون المصائب ويحتسبون أجرها عند الله تعالى عملا بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران: ١٦٥، وقوله أيضا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ الشورى: ٣٠، بهذه القوة الإيمانية الروحية يرفض المسلم الحق الاستسلام لليأس والقنوط ويحرص على بذل الأسباب المشروعة وحسن التوكل على الله تعالى.

* خامسا في المهارات

وبالجملة فإن التربية الروحية
للشخصية المسلمة تجعل منها شخصا
مميّزا في كل الأحوال، ولهذا شواهد
واقعية لا يزال التاريخ يقصّها على
مسامعنا، فهؤلاء الصّحب الكرام ما
اعتنق أحدهم الإسلام واهتدى بهديه،
إلا وشخصيته تتغير فتتهذب وتقوى
وتتزكى وتستنير بنور الله تعالى، فتسمو
في نفسها وتلين لمن حولها...

الشخصية وتجعلها ترقى إلى ما هو
محمود من الصفات وذلك بالتوجيهات
والإرشادات التي يتلقاها الشخص من
مربيّه ومنها:

- علو الهمة واستثمار الوقت في ما
يعود عليه بالنفع.

- التراحم والتوَادد والمواساة
والتآزر...

- الرفق والحياء والأناة والإيثار...

- كفّ النفس عن الهوى واتباع
الملذات والشهوات...

